بفضل اللغة العربية أصبحت الشعوب الإسلامية أغنى الأمم علماً وفكراً وثقافة في العصور الوسطى

للدكتور أحمد نصر الدين الغندور

استاذ الشريعة والعلوم الاسلامية
جامعة الكويت

كان العرب قبل الاسلام يتحدثون باللغة العربية ، ولكنه لم تتحقق وحدتهم فى الجزيرة العربية ، لان طبيعة البلاد فيها ، وتباعد سكانها ، وتفرقهم في الصحراء ، ادى الى صعوبة الامتزاج ، مما نجم عنه اختلاف اللهجات العربية ، حتى اصبحت هذه اللهجات وكانها لغات بعيدة فى اصلها العربي ، وكانت لهجة قريش اكثر اللهجات انتشارا .

وقد انغمس بعض العرب قبل نزول القرآن الكريم فى المسائل السياسية والاجتماعية ، وتناسوا لغتهم العربية ، وساعدت الامية على اهمال اللغة العربية احيانا ، بل ذهب البعض الى ان الاهداف الاجتماعية والاقتصادية انتصرت على الاهداف الادبية فى اسواق العرب .

اما وقد اصبحت اللغة العربية وحدها قبل الاسلام لا تستطيع أن توحد العرب ، وتجمعهم تحت راية واحدة ، فكان لا بد من أساس آخر يدعم هذه الوحدة ، فنزل القرآن الكريم كتابا عربيا ، يدعو الناس جميعا الى دين واحد ، يتضمن **وحدة اللغة** ، فكانوا يدخلون فى دين الله افواجا ، وحرصوا على أن يتفهموا لغة القرآن ، ووسعت اللغة العربية كتاب الله وسنة رسوله لفظا وغاية ، وصمدت لطغيان التتار ، وقهرت محاولات الفرس ، حتى امتد الاسلام من الجزيرة العربية الى اقصى الهند والصين ، ولولا ما طرأ على الاسلام من اختلافات سياسية ، وظلم بعض حكامه لدخل فيه اكثر البشر ، ولصارت اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، لغة لكل من دخل فى الاسلام من الامم غير العربية .

والتاريخ يدلنا على أن تمسك السابقين بقرآن الله العربي المبين حمل بعض الامم على تعلم لغة العرب . وها هي ذي **مصر** واخواتها العربيات ، **كالعراق والشام ، وتونس والجزائر ، والمغرب الاقصى قد تعلمت العربية** ، وصارت مهدا لها في عصرنا الحاضر ، ولولا ذلك لبقيت مصر على اللغة القبطية او الرومية ، والعراق على الفارسية وهكذا ، ولكان هذا نكبة على العروبة والاسلام .

ومما لا شك فيه ان الاسلام الذي جاء على يد رسول عربي بقرآن كريم خلدت به **اللغة العربية** وتقدست ، كان له من الاثر العظيم فى حياة البشرية وحضارتها ، وكان وما يزال القرءان اعظم الامجاد التي تفخر وتعتز بها الامة الاسلامية ، ولقد بلغ القرآن فى بلاغة اللغة العربية ذروة الاعجاز في الاسلوب والنظم والتأثير فى نفوس المؤمنين والكافرين على السواء ، لان اسلوبه الذي طرق فى اول عهده آذان البدو كان نثرا يفيض جزالة فى اتساق نسق ، لفعله اعمق الاثر فى نفس كل سامع يفقه لغة العرب . كما كان القرآن الكريم سببا فى تدفق الناس على الجزيرة العربية ، والظهور على اعظم ملوك الارض « كسرى وقيصر » وازالة الشرك والظلم ، ونشر التوحيد

والعدل ، ودخول الناس فى دين الاسلام مختارين ، واضعين نصب اعينهم تعلم اللغة العربية ، لعنايتهم بفهم القرآن الكريم .

وهذا الاسلوب العربي غير ما بانفس العرب وغيرهم ، مما جعل الوليد بن المغيرة المخزومي ينطق بأن القرآن الكريم هو الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه ، والذي يحطم ما تحته ، وصدق الله حيث قال : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ... »

ولقد صاح الاسلام بالبشرية صيحة دعاها بها الى الوحدة الانسانية العامة . دعاها الى ملة واحدة ، ودين واحد ، ولسان واحد ، كما أن جنسها واحد ، وربها واحد ، وكان مما دعاها اليه الوحدة فى اللغة ، لانه **لا يمكن الاتحاد والاخاء بين الناس ، وصيرورة الامة الاسلامية امة واحدة الا بوحدة اللغة** . وما زال العلماء يتمنون لو يكون للناس جميعا لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ، وهذه الامنية قد حققها الاسلام . بجعل لغة القرآن ، لغة جميع المؤمنين بالله ، الخاضعين لشريعته .

لذلك كرر الله فى القرآن الكريم انه كتاب عربي ، وكرر الامر بتدبر وتفقه ما فيه ، حتى دعا غير المؤمنين الى تعلم لغة القرآن ، ليخضعوا لاحكامه « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين . على قلبك ، لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »

والدليل على الدعوة الى وحدة اللغة ما رواه الحافظ بن عساكر بسنده الى مالك ، عن الزهري ، عن ابى سلمة بن عبد الرحمن ، قال : جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ، (ويعني النبي صلى الله عليه وسلم) . وان الاوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لانهم من قومه ، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي الى نصره ؟ فقام اليه معاذ بن جبل فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بمقالته ، فقام النبي مغضبا يجر رداءه ، حتى أتى المسجد ، ثم نودي : ان الصلاة جامعة . وقال : « ايها الناس ، ان الرب واحد ، والاب واحد ، وان الدين واحد ، **وليست العربية باحدكم من اب ولا ام ، وانما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي** » فقام معاذ ، فقال : ما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : « دعه الى النار » فكان قيس ممن ارتد فى الردة ، فقتل .

ولقد **أدى انتشار الاسلام الى انتشار اللغة العربية** ، وامتزجت الحضارات **وربطت اللغة العربية جميع البلاد الاسلامية برباط معنوي** ، وان اهل الامصار الاسلامية يزداد اسلامهم كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن الكريم .

كما ذاع النفوذ القرآني ، **وسادت اللغة العربية** فى مختلف الاوساط **بظهور علوم القرآن والسير وعلوم الرجال** ، وعلوم الفقه والاصول وتطلع المسلمين الى الوقوف على احوال الكون وتسخيره ، وتعميره ، وظهور علوم الرياضيات ، والفلك ، وعلوم الفلسفة ، والاديان والعقائد ، والطب ، وغير ذلك من شتى الفنون والعلوم التي الفت باللغة العربية ، ولم يكتمل القرن الرابع الهجري حتى كانت الشعوب **الاسلامية اغنى الشعوب علما ، وفكرا ، وثقافة ، واعتزازا بلغتهم العربية** .

وليس من شك فى ان الحريص على اللغة العربية يقض مضجعه ما آل اليه أمرها الآن من انتشار اللهجات العامية فى البلدان العربية ، التي تفيض ركاكة ، وترضخ عجمة حتى نجد بينها وبين لغة العرب فرقا شاسعا ، ومما يؤسفنا اننا نجد الكثير من المثقفين من ابناء العرب ، لا يكاد لسانهم يستقيم باللغة العربية الفصحى ، ولكنها تتعثر بين شفاههم ، وكذا وسائل الاعلام يدور معظمها على الحديث بالعامية ، وهذا التهاون والتفريط فى صيانة اللغة العربية ربما يؤدي الى طمس بعض آثارها فى المستقبل .

ويزعم البعض من ابناء العرب ان التحدث بالفاظ عامية ممتزجة بالفاظ افرنجية نوع من معالم الحضارة ، ولون من سمات التقدم والمدنية ، حتى بعدت الشقة بين العرب ولغتهم ، وما علم هؤلاء العابثون بلغة القرآن انهم يخنقون باتجاههم المنحرف انفاس اللغة العربية فى حين انها اس امجادنا ، واسمى مقوماتنا .

وبعد ، فليس ثمة شك فى ان **بين الاسلام ولغة العرب ارتباطا وثيقا ، فالقرآن هو الحارس للغة العربية** من احداث الزمن ، وهو الذي كفل لها البقاء والدوام ، مهما دبر لها من سوء ، ومهما فرط اهلها فى الاعتزاز بالتحدث بها . وانه كلما قويت الصلة بالقرآن ، وتدبر الناس الفاظه ومعانيه كان للجميع ملاذا ، وللغة العربية حصنا واقيا .